بسم الله الرحمن الرحيم

توطئه :

يلاحظ المتتبع لتاريخ أوربا وشعوبها طوال عصور التاريخ أن شعوب هذه القارة اتحدت ارادياً وأجمعت على هدف واحد ، مرة واحدة ، هي فترة الحروب الصيبية ، ففي أيامنا هذه ، على الرغم من جميع الجهود الاعلامية المبذولة وسواها لم يتوفر الاجماع الشعبي الأوربي للموافقة على الوحدة الأوربية.

إن ظاهرة التوحد لخوض الحروب الصليبية بحماس منقطع النظير فريدة في بابها ، جديرة بالدرس من قبل الذين يرون أن التاريخ هو تاريخ ما تصنعه الشعوب لا تاريخ السلاطين والملوك.

ومما لا شك فيه أن المحرك الأساسي لقيام هذه الظاهرة هو العاطفة الدينية ، وليس الاقتصاد والمنافع المتبادلة والتأثير السياسي والاجتماعي ، إنما قد يرى المتفحص لتاريخ الحروب الصليبية أنها بدأت شعبية لكن مع الأيام أخذت تتحول الى حروب رسمية ،وهكذا انتهت ، وهنا قد يكمن أحد أسباب الاخفاق النهائي للصليبيين.

هذا من الجانب الأوربي ، أما الجانب العربي فقد بدأ التصدي للغزاة الصليبين رسميا ، ومع الأيام أخذ هذا التصدي يتحول الى عمل شعبي مجمع عليه ، فعدد المتطوعة يوم حطين فاق عدد الجند المحترفين ، والشعب العربي هو الذي جاهد حقا وبشكل جماعي وطوال قرنين لم تتوقف فيهما الحرب لحظة واحدة ، ونحن نواجه في المصادر العربية من تواريخ وكتب تراجم وجهاد وفضائل مدن وبلدان مواد ثمينة جدا جديرة بالتعمق بالدراسة ، ففي عصر الحروب

الصليبية صنف ابن الجوزي أكثر من كتاب عن فضائل القدس ، وفي هذا العصر صنف ابن عساكر تاريخ دمشق وضمن المجلدة الأولى من هذا الكتاب العملاق مواد هامة عن فضائل الشام ، وابن عساكر نفسه صنف بالجهاد ، وحرض نور الدين وشجعه لتوحيد صفوف المسلمين في سبيل تحرير القدس وطرد الغزاة ، وقد خاطبه بعد توحيد مصر وبلاد الشام بقصيدة منها قوله:

وإن بذلت لفتح القدس محتسبا
للأجر جوزيت أجرا غير محتسب

ولست تعذر في ترك الجهاد وقد
أصبحت تملك من مصر الى حلب

وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل
لما تريد فبادر فجأة النوب

وطهر المسجد الأقصى وحوزته
من النجاسات والاشراك والصلب

ومن الملاحظ من الجانب الأوربي أنه منذ ما يعرف باسم الحملة الثانية بدأ الحماس الشعبي يضعف بعض الشيء ويزداد مع الأيام في حين ازداد التورط الرسمي للبارونات والملوك والأباطرة والمؤسسات التجارية البحرية خاصة الايطالية منها ، فقد سعت الدويلات الايطالية الى استثمار الحروب الصليبية وجني الأرباح بأي صورة كانت ، سواء بالتعاون مع الأوربيين أو بالتعامل الخفي أو الظاهري مع المسلمين ثم إن الحماس الديني الذي قاد الى قيام الحروب الصليبية ، وقد ترافق مع التعصب الشديد ، أدى ـ فيما أدى اليه ـ الى تعميق الانفصال بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية ، ومن غرائب الأمور أن هدف الحروب الصليبية الأول كان القضاء على الاسلام والعرب وتحويل بلاد الشام الى وطن لاتيني فيما وراء البحار ، وكذلك كان بين الأهداف توحيد الكنائس المسيحية ، لكن الذي تحقق هو العكس تماما .

كان جل سكان مدن بلاد الشام قبل الحروب الصليبية مسيحيين ، لكن كان من بين نتائج هذه الحروب انقلاب المعادلة بشكل حاسم بحيث صارت الأكثرية الساحقة مسلمة ، والشيء نفسه حدث عندما استولت الكنيسة اللاتينية على القسطنطينية مقر الكنيسة الأرثوذكسية ، وتم هذا الاستيلاء في الحملة الرابعة .

ليس بودي الحديث عن أسباب هذه الحملة ووقائعها ونتائجها ففي مقدمات النصوص التالية فضلا عن محتويات هذه النصوص ما يكفي من شرح وبيان ، ونصوصنا وثائقية المعلومات وهي ثلاثة حوت أكثر التفاصيل وأدقها عن هذه الحملة التي طالت ضربات ساحقة للامبراطورية البيزنطية ، مهدت ـ بلا شك ـ الطريق للقضاء على هذه الامبراطورية فيما بعد لصالح الاسلام والمسلمين ، وتحويل القسطنطينية من مدينة قسطنطين الى « اسلام بول » كرسي الاسلام ، وهنا ايضا واحد من دروس الحروب الصليبية ، خاصة إذا ماشينا الدراسات الحديثة حول أصول الدولة العثمانية الجهادية الشعبية.

والنصوص الأوربية حول الحملة الرابعة هي الأخيرة من نوعها في هذه المرحلة من العمل بموسوعتنا وكلي أمل أن أتمكن في مستقبل الأيام من استكمال هذا المشروع والله المستعان ومنه جل وعلا أستمد التوفيق فله الحمد دائما وأبدا ، والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين .

دمشق غره ذي الحجة ١٤١٣
٢٢ / ٥ / ١٩٩٣.

obeikandl.com

الاستيلاء على القسطنطينية

فلهاردين

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

قليل من الاحداث في التاريخ كان أكثر اصطباغا بالخيال الروماذسي من تلك السلسلة من الحملات الى الأرض المقدسة التي تعرف بالحروب الصليبية .إن الرسم بالذات يستحضر صورة فرسان شجعان قد الهموا بالحماس الديني الهدف يتركون بيوتهم وبلادهم ليباشروا حربا شرسة مقدسة ضد أعداء العقيدة المسيحية، والحولية المعروضة هنا هي من تأليف رجل ممن شارك في احدى هذه الحملات وهو يقدم صورة صادقة لمغامرة يظهر فيها الجانب الأكثر ظلاما والجانب الأكثر اشراقا للطبيعة البشرية في اعمال الذين حملوا شارة الصليب،وعلى أي حال طالما أن هذه الحولية تتعامل فقط مع احدى الحملات الصليبية فانه ربما كان من الجيد في هذه المقدمة أن نضعها في اطارها حيث تصور بعضا من الصراع بين المسيحيين والمسلمين لامتلاك الأرض المقدسة الذي استمر لما يقرب من مائتي سنة .

لقد كانت القدس المدينة المقدسة مركز الحج من أزمنة قديمة جدا . وقد ترك المسيحيون بعد فتحها من قبل الخليفة عمر في سنة ٦٣٨ أحرارا في ممارسة دينهم وبقيت الظروف هكذا حتى ١٠٧٦ عندما انتقلت القدس الى ايدي الاتراك السلاجقة ، الذين روي انهم انتهكوا الاماكن المقدسة وعاملوا نصارى المدينة بقسوة فالقوا ببعضهم في السجن وذبحوا آخرين وعاد الحجاج الذين تدبروا أمر شق طريقهم الى الأرض المقدسة بقصص مثيرة للشفقة عن أحوال ابناء دينهم في الشرق وخطرت فكرة الحرب المقدسة للثأر لهذه الاخطاء للبابا غريغوري السابع وخليفته فيكتور الثالث ولكن شعوب النصرانية الغربية التي كانت منشغلة بشؤونها الخاصة في الوطن قد ألقت بالا قليلا لمناشدتها،ومع ذلك فإن اعمال تبشير الناسك بولس فعلت الكثير في التأثير على الرأي العام شيئا فشيئا وعندما في مجمع

كليرمونت في تشرين الثاني ١٠٩٥ دعا البابا أوربان الثاني - الفرنسي المولد - أهل بلاده أن ينضموا الى حملة دولية لاستعادة القدس لقى استجابة حماسية ٠ وفي ١٠٩٦ انطلقت حملتان وأخذتا طريقهما نحو الشرق واحدة بقيادة بطرس الناسك وكانت تتكون من الدهماء غير المنظمين وقد أبيدت تقريبا عن بكرة أبيها من قبل الاتراك في تشرين الأول من تلك السنة ، وكانت الأخرى مكونة من قوات منظمة بشكل صحيح تحت بارونات من شمال فرنسا وفلاندرزوشمال ايطاليا ، وقد وصلت الى القسطنطينية في كانون الأول وهنا انضمت الى قوات الامبراطور البيزنطي وبمرورها من أسيا الصغرى عاونت الروم في الاستيلاء على نيقية وهزمت الأتراك في دور يليوم وفي النهاية دخلت سورية ٠

وفي أثناء ثورة شعب الأقليم الشمالي من الرها ضد حاكمهم الأرمني وجهوا الدعوة إلى بلدوين دي بولیون ليحل محله في آذار ١٠٩٨ ، وفي حزيران من تلك السنة استولى الصليبيون على انطاكية ، وفي تموز ١٠٩٩ أخذوا القدس بعد حصار دام ستة أسابيع فقط ، ويأسف المرء أن يقول أن هذا النصر قد اعقبه ذبح بلا رحمة لجميع السكان داخل المدينة بلا تمييز باللون أو الاصل أو العقيدة ، وكنتيجة لهذه الحملة الأولى انشئت دول مسيحية ثلاث : في سورية:امارتا الرها وانطاكية ومملكة القدس ، وشاعت معرفة جميع تلك الأراضي المفتوحة باسم « بلاد ما وراء البحار » ٠

وتدبر بارونات ما وراء البحار لسنوات بالاحتفاظ بحرب هجومية دفاعية ضد العدو المحيط بهم ، أمر الثبات في الأراضي التي كسبوها دون طلب معونة كبيرة من الغرب ، وفي ١١٤٤ مع ذلك عندما استرد المسلمون اقليم الرها ، أرسلت الملكة الوصية على عرش القدس وقد خشيت بعد رؤيتها لانكشاف الحدود الشمالية لانطاكية من سقوط هذه الامارة مع أقليمها ، أرسلت مسرعة مناشدة ملحة الى البابا يوجينيوس الثالث ليبدأ حملة صليبية جديدة وأحال البابا الأمر الى الملك لويس السابع ملك فرنسا وهو رجل

عرف بورعه،وكان قد حمل شارة الصليب ١١٤٦ في اجتماع فيزلي حيث دفعت بلاغة القديس برنارد بكثير من الفرنسيين لحذو حذو ملكهم وبرحيله الى المانيا حث القديس برنارد الامبراطور كونراد على الانضمام للحملة،وفي ١١٤٧ انطلق جيش بقيادة حاكمي فرنسا والمانيا في الحملة الصليبية الثانية وقد صمما على القيام بأعمال عظيمة.

وفي النهاية مع ذلك قام الصليبيون بدلا من التقدم نحو الرها بمحاولة غير ناجحة للاستيلاء على دمشق،ثم عادوا أدراجهم دون انجاز أي شيء.

وفي هذه الأثناء كان المسلمون في الشرق يزدادون قوة والمسيحيون يزدادون ضعفا ، وكان الحجاج الذين يأتون الى الأراضي المقدسة كثيرا مايصدمون بالترف وبالحياة الفاسقة في ما وراء البحار ، وبددت الخلافات الداخلية بين بارونات الأرض الطاقة التي يمكن أن تستخدم في الدفاع عنها وترك موت الملك عموري ملك القدس في ١١٧٤ المملكة دون خليفة جدير ، وبعد قليل تولى صلاح الدين السلطة كرئيس لدولة مسلمة موحدة . وفي ١١٨٧ عانى المسيحيون من أعظم كارثة نزلت بهم عندما هزم صلاح الدين جيشهم ودمره عند قرني حطين في ٣ تموز ،ثم استرد طبرية ويافا وعسقلان وغزة وفي النهاية دخل القدس . وكانت معاملة المسلمين الانسانية للسكان المسيحيين في تضاد ملحوظ مع سلوك الصليبيين الذين استولوا على المدينة في ١٠٩٥

ومرة أخرى استثيرت النصرانية الغربية للعمل. وفي ١١٨٩ أعدت حملة صليبية بقيادة ثلاثة ملوك : فريدريك بربروسا ملك ألمانية وفيليب اغسطس ملك فرنسا ورتشارد الأول ملك انكلترا للمضي الى ماوراء البحار ، وغرق بربروسا الذي انطلق أولا في نهر صغير وهو في طريقه عبر آسيا الصغرى في ١٠ حزيران ١١٩٠،وتبدد جيشه وقد ثبطت همته حتى تخلفت عنه فقط فرقة صغيرة ، وفي وقت مبكر

من السنة التالية أبحر فيليب ورتشارد من مسينا ليمضيا الى مساعدة الملك الاسمي للقدس ، الذي كان مع جيش صغير يرثي له يحاصر قوات صلاح الدين في عكا ، وكان جيشهما شركة غير مستقرة منذ البداية ولاختلاف المزاج ـ كان رتشارد حاد المزاج متهورا وعنيفا وكان فيليب داهية وباردا ـ وكانت علاقاتهما معقدة أكثر مع ذلك بسبب حقيقة أن الملك الانكليزي كدوق لنورماندي لم يكن تابعا مطيعا جدا ، بينما كان الملك الفرنسي من جانبه يغار من سلطة رتشارد.

ووصل فيليب الى أمام عكا في ٢٠ نيسان ١١٩١ ، أما رتشارد الذي أعاقته عاصفة في البحر ، وصل الى هناك بعد ذلك بسبعة اسابيع ، وعندما استسلمت عكا في ١٢ تموز رفع الملكان أعلامهما على الجدران ووضع ليوبولد ملك النمسا ، وكان الآن يتولى قيادة القوات الألمانية علمه هناك أيضا ، ولكنه فقط ليمزق ويلقي به في الخندق ، وهي إهانة وقع من أجلها انتقام قاس فيما بعد ، ويلقي ذبح رتشارد لأسراه من المسلمين بعد استسلام عكا ظلا أكثر سوادا على اسمه .

وفي آب ١١٩١ عاد الملك الفرنسي بعدما تعب من الحرب الصليبية ، وبسبب قلقه على حالة الأمور في مملكته إلى فرنسا ، وتولى رتشارد القيادة على بقية القوات وتابع الحملة . ومع أنه هزم صلاح الدين في أرسوف في أيلول ١١٩١ واستولى بنجاح على يافا في آب من السنة التالية ، وأصبحت القدس في متناول يده ، أغمض عينيه عن رؤيتها ، ولم يجرؤ على محاولة الاستيلاء عليها ، وكان الانجاز الوحيد لهذه الحملة الصليبية عقد هدنة خمس سنوات مع صلاح الدين الذي منح المسيحيين ملكية المدن الساحلية الرئيسة إلى مسافة في الجنوب تصل إلى يافا ، ومنح للحجاج حق حرية الدخول إلى القدس .

وهكذا نأتي إلى الحملة الصليبية الرابعة ، التي روى قصتها

فيلها ردين في كتابه الاستيلاء على القسطنطينية وهو عمل متميز بين أشياء أخرى لحقيقة أنه أول سجل يعتمد عليه عن هذه الحملات ، يكتب بالفرنسية ، وإنه لصحيح أن الحملات الصليبية الأقدم كان لها مؤرخوها ، ولكن هؤلاء الذين قد نلحظ بينهم بشكل خاص وليم رئيس أساقفة صور قد أعطوا رواياتهم باللاتينية.هذا ولم يكن هناك نقص في سيل شعر معين يتعلق بمآثر الصليبيين في بلاد ماوراء البحار ولكن أيا من هذا لم يكن له أي قيمة تاريخية ، ويعطي غرنيدوردي دواي،وكان يكتب في النصف الأول من القرن الثاني عشر رواية مليئة بالحيوية في أنشودة أنطاكية وأنشودة القدس عن أخذ هاتين المدينتين في الحملة الصليبية الأولى ، ولكنه من جانب آخر كان لديه تصور صغير وراء الحملة ، ومعرفة منقوصة جدا حول الأحداث الرئيسة ، وما هو أقل أهلية للاعتماد ذلك التقليد للملاحم الفرنسية القديمة من مثل « غودفري دي بوليون » أو « الفارس المقدس » الذي يأخذ فيه الخيال الجامح مكان الحقيقة ، ويعطي النورمندي جونفلير في تاريخه « تاريخ الحرب المقدسة » سجلا دقيقا للحرب الصليبية الثالثة ، ولكن من موقعه كحاج متواضع بين الصفوف ليس لديه أكثر من نظرة خارجية للأحداث التي يؤرخ لها . وبقي للعامل الرئيس من الحملة الصليبية الرابعة أن يقدم التاريخ الأول الجدير والمستكمل للمعلومات عن مثل هذه الحملة بلغته الوطنية ونثرا .

ولد مؤلف «الاستيلاء على القسطنطينية» في وقت مابين ١١٥٠ و ١١٥٤ وكان والده فيلان دي فيلها ردين رجلا نبيلا من شامبين ولديه ممتلكات في الجزء الجنوبي من الأقليم ، غير بعيد عن مدينة ترويس الرئيسة ، ولم يكن جيوفري أكبر أولاد فيلان ولكن بفضل روابطه بالمولد وفيما بعد بالزواج مع كثير من عائلات شامبين النبيلة والأقاليم المجاورة ، وبلا شك أيضا في قوة شخصيته القيادية وأهليته للاقدام أصبح في ١١٨٥ مارشالا لشامبين . وفي تلك الأيام عندما كان القتال بين البارونات المتحاربين احتمالا كان واجب المارشال أن يعمل على أن يكون كل شيء في وضعه الصحيح للمقاومة

أو الهجوم ، فإذا قامت الحرب كان عليه أن يتخذ كل الترتيبات الضرورية للحملة ، وفي غياب الأمير يتولى القيادة ، وإضافة لذلك كان نائبا للأمير في كل ما يتعلق بالادارة في الاقليم ، ولم يكن فيلها ردين على حد ما نعرف في الخدمة الفعالة قبل أن يذهب إلى ماوراء البحار ، ولكن هناك دليل على دوره العام الذي شغله كحكم في المنازعات ضمن الاقليم وكممثل لأميره في المفاوضات مع ملك فرنسا . وفي مجال واجباته أصبح على معرفة مع كثير من تلك الشخصيات البارزة النبيلة التي وردت أسماؤها في حوليته ، ولقي كمارشال للأقليم خبرة هيأته للمهام التي كانت تنتظره في حقل أوسع ، وفي حين أن عمله الذي كان يتبع ترتيبا زمنيا ليس سجلا للأحداث المعروفة من يوم ليوم ، فإنه كان بالأحرى نوعا من التاريخ الرسمي للحملة الصليبية الرابعة ، وقد تم تأليفه بعد بضع سنوات من نهاية الحملة المجهضة من قبل امرىء ممن استطاع أن يردف مذكراته هو عنها بالرجوع إلى الوثائق الموجودة ـ رسائل : معاهدات قوائم الجيش وهكذا ـ التي أمكنه الوصول إليها كمارشال لرومانيا ، وتكلم فيلها ردين كرجل ذي سنوات ناضجة وخبرة واسعة ومن موقع الثقة في الذين نظموا أو تولوا جزءا قياديا في الحملات المختلفة والأحداث الأخرى التي ادخلها وحتى ولو ـ كما بالنسبة لكل التواريخ التي كتبت قبل زمانه قد وضع الأحداث في منظورها الكامل ـ أن تفسيره كان أحيانا متحيزا ، إنه أعطى إجمالا روايات أمينه وجيدة جدا حول عمل بدأ جيد جدا وانتهى بشكل مفجع جدا .

والشيء نفسه لم تنج الدقة والجودة لعرض فيلها ردين لتاريخه من التحدي من نواح معينة فبعض ناقديه مثلا يؤكد أنه في القاء المسؤولية عن انحراف الحملة الصليبية إلى زارا وفيما بعد إلى القسطنطينية على الرجال الذين أخفقوا في تقديم تقاريرهم إلى البندقية لم يأخذ بعين الاعتبار بعض المؤامرات التي كانت تحاك خلف الكواليس ، وادعى آخرون أنه بفعله ذلك قد رتب عن عمد قصته هكذا ليحرر بعض قادة الحملة من اللوم ، ومثل هذا النقد

يمكن الاجابة عليه بسهولة ، فلا شك أن أهل البندقية وجدوا بحالة منحتهم فرصة زيادة نفوذهم في حوض البحر المتوسط ، ولاشك في أن فيليب صاحب سوابيا كان متلهفا على جعل صهره اليكسيوس يستعيد سلطته ، وفي حين أن هذا قد يكون كذلك إنه من الصعب تخيل أن الصليبيين الفرنسيين كان يمكن أن يوافقوا على تأييد مقاصد البندقية وألمانيا لو أنهم في ظروفهم الصعبة والمقيدة رأوا أي طريقة أخرى للنجاح في مغامرتهم ، وأما بالنسبة لفكرة أن فيلهاردين عمل كمدافع رسمي فهذا يمكن استبعاده بسرعة نظرا لروايته الأمينة للأعمال عن الدور نفسه لهؤلاء القادة في تاريخ لاحق . وقد اتهم فيلها ردين أيضا بالقسوة المفرطة في حكمه على الرجال الذين أخفقوا في الانضمام إلى الجيش أوفروا منه ، إنه قاس بالتأكيد ولكننا يجب أن نأخذ الظروف في الاعتبار فلقد قيد البارونات أنفسهم في مجلس مكتمل بالالتزام بأي اتفاق يتوصل إليه مبعوثوهم في البندقية ، وبعادة إقطاعية كان كل من رهنوا أنفسهم بالمضي مع الحملة ملتزمين بالدرجة نفسها ، وكرجل شريف هونفسه ، مع مفهوم عال لواجباته العسكرية وجد فيلها ردين أنه لايتصور أن أي رجل يستحق اسم فارس يمكن أن يحنث بوعده ، أو يمتنع عن المضي إلى حيث يأمر قائده ، لماذا ـ هكذا تعجب ـ تخلف مثل هذا العدد الكبير من الفرسان ؟ وفي سخطه بسبب الضرر الذي سببه هذا الارتداد عن هذه المغامرة ، بدا له أنهم ربما قد اعتقدوا أنه من الأسلم أن يذهبوا إلى سورية حيث كان المسيحيون مايزالون يحتفظون بمدن معينة بدلا من مواجهة مخاطر شن حملات على بلد كان بكامله في أيد مسلمة ، ومع ذلك ومع مراعاة التقلب البشري في رواية مصير الذين ذهبوا إلى سورية انه لم يكن الشجاعة بل نقص الحكمة هو مالامه فيلهاردين ، والكلام هنا من منطلق الاشفاق بدلا من الغضب إنه قدم التقدير لذكرى الفرسان الجيدين ويأسف فقط لأنهم وقعوا في خيار سيء وتحملوا العقوبة على حمقهم الآثم .

أما بالنسبة للزعم بأن فيلها ردين في روايته حول الخلافات في الجيش أو الفرار بالتالي منه لم يترك مجالا للشكوك الدينية للذين

احتجوا ضد شن الحرب على المسيحيين ، من الصعب في هذه الفسحة من الزمن تقدير إلى أي حد كانت هذه الاحتجاجات مخلصة وإلى أي مدى قدمت كذريعة لحل الجيش ، وفي حالة راعي دير فو هناك بعض الأسباب للشك لأن هذا الأكليركي الذي كان نشيطا جدا في إثارة الخلافات في جيش الصليبيين ، والذي تركه في النهاية بذريعة الشكوك الدينية ، لم يبد مثل هذه الحساسية في ١٢٠٩ عندما شغل دورا قياديا في الحملة الصليبية ضد الألبانيين الذين لم يكونوا أقل نصرانية من الروم .

وفي كل الأمور المدروسة إنه من الصعب الشك بأن فيلها ردين وقد كان مقتنعا بأن الأمل الوحيد في استرداد القدس يكمن في الابقاء على وحدة الجيش ، كان قليل الصبر مع الذين رغبوا في حله ، وقليل التعاطف مع الذين ردوا على الشكوك الدينية ، أو لم يمنح البابا نفسه ـ وقد روع في البداية بالهجوم على المدينة المسيحية زارا ، الغفران للصليبيين على أساس أنهم قد تصرفوا تحت الاضطرار والاكراه وحثهم على الابقاء على وحدة الجيش ؟ علاوة على أنه في الوقت نفسه الذي كان فيه راعي دير فو يثير المتاعب كان قداسته اعتمادا على وعد اليكسيوس قد عمل على جعل الكنيسة اليونانية تحت سلطة روما ، وأخيرا وبعد بعض التردد أعلم الصليبيين أنه لن يعارض في الحملة على القسطنطينية طالما أنها كانت تدار بطريقة تؤدي إلى إعادة توحيد الكنيستين الرومانية والأرثوذكسية .

ولم يكن لهذا الأمل أن يتحقق مطلقا ، ولم يكن لهذا الجيش أن يبلغ مطلقا المدينة المقدسة ومن الوقت الذي قدم فيه الفرنجة إنذارهم إلى الأمبراطور اليكسيوس الرابع في شباط ١٢٠٤ كانت كل الأفكار حول حملة صليبية قد غابت عن الأنظار في سلسلة من النزاعات بين الفرنجة والروم ، والمتاعب الكثيرة التي أعقبت إنشاء الأمبراطورية اللاتينية لرومانيا بقوة السلاح ، وفي هذا القسم الأخير من الحولية أن انحياز فيلها ردين يجب أن يؤخذ في الاعتبار ، وبرواية الأحداث من وجهة النظر الفرنسية إنه يفسرها إلى حد ما يستطيع مع

الاجحاف بالروم الذين اليهم كانت تعزى المحاولة الباسلة لأمة مهزومة لاكتساب استقلالها المفقود ، وكانت في عينيه برهانا على أنهم كانوا بالطبيعة غير مخلصين وخونة ، وبصرف النظر عن هذا الانحياز تعطي حوليته رواية حية عن الصراع الطويل المأساوي بين مسيحي الشرق والغرب ، وهو صراع يمكن أن نستمد منه استنتاجاتنا .

ومن الحقائق التي يضعها فيلها ردين أمامنا تبين أنه من أول توليهم للسلطة وقع الغزاة في الخطأ المميت بالاقلال من شأن المقاومة التي قد يجدوها ، واثقين من أنه بعد الانهيار المفاجيء للمقاومة في القسطنطينية كان اخضاع بقية الامبراطورية أمرا سهلا ، وعلى مايبدو إنهم كانوا غير مدركين للكراهية المرة التي ثارت في عرق مثقف بفعل بربر متغطرسين برعونة نهبوا مدينتهم الجميلة وحطموها بعدما كانت واحدة من أجمل المراكز الحضارية في العالم ، ثم أن الفرنجة لم يقوموا بأي محاولة لاسترضاء الروم .

وفي البداية بدا كما لو كانت ثقتهم كان لها ما يسوغها وبصرف النظر عن بعض المدن المعزولة التي كانت مازالت صامدة ضد الغزاة ، كانت الأرض على الجانب الشمالي من المضايق قد استسلمت للحكم الأجنبي ، ومع ذلك فكر البارونات كما يقول فيلها ردين نفسه بدلا من حكم الأراضي الخصبة لهم بحق فقط في أي مكسب يمكن أن يحصلوا عليه لأنفسهم ، وكانت هذه الاثارة الأخيرة كثيرة جدا بالنسبة للروم وبقيامهم بالثورة دفعوا بالفرنجة خارج أدرنة وديموتيكا واستولوا على هاتين المدينتين الهامتين ، وفي تلهفهم على طرد الغازي بكل الوسائل الممكنة دخلوا في تحالف مع الملك القوي لوالاشيا وبلغاريا ، وثبت في النهاية أن جوهانيتزا كان حتى أكثر بعدا عن الترحيب من الفرنجة .

ولكن إذا كان للروم من سبب للأسف من مجيئه ، كذلك فعل قاهروهم عندما أخذت قوات جوهانيتزا تجتاح الأمبراطورية ،

وتستولي على المدن الجبلية في رومانيا وتدمرها حتى بقي اثنتان منها فقط بجانب القسطنطينية في أيدي الفرنجة .

وفي الوقت نفسه كان على الجانب الآخر من المضايق في آسيا الصغرى ثيودور لاسكاريس زوج ابنة اليكسيوس الثالث يعمل مافي وسعه لمنع الفرنجة من الاستيلاء على الأراضي المخصصة لهم ، وأخيرا كما يخبرنا فيلها ردين نجح في تحقيق أهدافه ، وبالاعتراف به منذ البداية من قبل الروم في آسيا الصغرى وأولئك الذين اصطفوا إلى جانبه من العدوة الأخرى كحاكم شرعي لهم : توج امبراطورا في ١٢٠٦ وكان لامبراطورية نيقية أن تبقى كمركز قيادة للملكة الرومية حتى مع سقوط الأمبراطورية اللاتينية في ١٢٦١ عاد أحد أبناء سلالة الأمبراطور تيودور لحكم القسطنطينية .

وتنتهي حولية فيلهاردين فجأة نوعا ما بموت المركيز دي مونت فرات في ١٢٠٧ وحقيقة أن هنري فالانسيان في كتاب (تاريخ الأمبراطور هنري) قد أكمل حكاية رومانيا من النقطة ذاتها التي انقطعت عندها رواية فيلها ردين ، توحي بأن النهاية المفاجئة للاستيلاء على القسطنطينية تعود إلى وفاة المؤلف ، وتاريخ هذا الأمر غير مؤكد ، وهناك أدلة على أن فيلها ردين كان مايزال حيا في ١٢١٢ وكان مايزال في رومانيا حيث يحتمل أنه بقي بقية حياته ، والوثائق المتعلقة بالتبرعات في ذكراه وذكرى زوجته تقدم الدليل .

على أنه قد توفي في وقت ما قبل حزيران ١٢١٨ وفي كل الأحوال فإنه قد عاش بما يكفي لكي يرى الامبراطور هنري أكثر حكمة وبعد نظر من أخيه سيء المصير ، وقد استرضى الروم باعطائهم حصة جيدة من التمجيد والمناصب وبتحقيق السلام في هذا الجزء من الامبراطورية الذي ما زال باقيا له .

إن الاستيلاء على القسطنطينية هو أحد مصادرنا الرئيسة للمعلومات حول مجرى أحداث الحملة الصليبية الرابعة (١) ولكنه

أيضا تذكاري لائق لواحد ممن كانت ممارستهم المستمرة لفضائل الفروسية من الولاء والشجاعة تعطيهم مكانا بين أنبل الشخصيات في أيامه ، رجل ذو مبادىء دينية ثابتة ، وكان واجب فيلهاردين تجاه الرب كما رآه هو أن يخدمه بالاخلاص الذي يخدم به التابع الجيد أميره ، وفوق وبعد كل ذلك الاعتراف بأن كل الأحداث ، سواء كأدلة على رضا الرب أو عدم رضاه هي بمشيئته ، والاخلاص للرب علاوة على ذلك يستتبع الوحدة التامة للسلوك ، وكل خرق للعقيدة ، وكل الأعمال السرية وأفعال الخيانة وكل الاشتهاء والجشع والبحث عن الذات ، ليست فقط مضادة لقوانين الفروسية بل انتهاكات للقانون الالهي ، فإذا كان الرب الذي يخدمه فيلهاردين « هو رب المعارك » وإذا كان يقبل دون سؤال تصديق ممثل البابا على الحرب ضد المسيحيين الروم كحرب عادلة ومقدسة ، مع أننا قد نأسف على المكان الصغير الذي يحتله الحب والرحمة في دينه ، إننا لا يمكننا أن نشك في الاخلاص في عقيدته .

وبالقدر نفسه في خدمته للذين يدين لهم بولائه الدنيوي فإن فيلهاردين يفسر واجبه بأنه شيء أكثر من الطاعة العمياء ، رجل ذو أخلاق قوية وحكم راسخ ، إنه لايخشى أن يظهر عدم موافقته على الخلاف بين الامبراطور بلدوين والمركيز دي مونتفرات ، ولكنه يتدخل بشهامة ليرأب الصدع ، وفي هذا كما في أمثلة أخرى في كل الحولية كان همه أن يعمل من أجل الخير المشترك للجميع .

وكانت الشجاعة تلك الصفة الأساسية الأخرى للفارس كما فهمها هي نشاط منظم ، انها لم تتكون من اغماض المرء عينيه أمام المخاطر ، وهناك الكثير من التلميحات في عمله إلى المخاطر التي تعرض لها هو وزملاؤه الصليبيون ، وهي لا تختلط وتتشوش مع الجفاف ، الذي كما كان في حالة القتال المفجع في أدرنة يقود الرجال للمجازفة ليس فقط بحياتهم بل بالمغامرة التي التزموا بها ، انها في الواقع المقدرة على القيام بتقويم هادىء ومتوازن للخطر دون الاستسلام للخوف ، ومثل هذه الشجاعة هي شجاعة فيلها درين ،

ومع ذلك هي ثابتة بشكل طبيعي حتى أنه كان يأخذها على أنها ليست شيئا يتباهى به ، وقد روى كل مغامرة كانت تتعلق به كواحدة كان لرفاقه البواسل حصة كاملة فيها .

وكان رجلا نو حكم واضح متوازن صارم متزمت صموت أو كتوم بطبيعته ، لقد تميز فليها ردين بالبساطة ووضوح الفكر في عمله لا اقحام لشخصيته ولا تحليق في الخيال ولا أوصاف طويلة تصويرية كتلك التي كان يسر معاصره روبرت دي كلاري بها وتتدخل لتقطع خط القصة الواضح الذي يفرض اهتمامنا بعرضه البارع للحقائق ، وكرجل دولة في فهمه لتحولات حملة بدأت كحملة صليبية وانتهت كحرب ضد المسيحيين واضح وظاهر باختياره الماهر ومعالجته لمادته ، والمضمون السياسي لكل تحول في الأحداث لكي يؤدي إلى فعل آخر ، وهذا دون حاجة لتعليق أكثر مما يلزم ليجعله واضحا ، لقد كان جنديا كما كان رجل دولة وهذا الشعور بالترتيب والنظام كان جزءا ملازما لرجال مهنته ، وهو يبدو بوضوح وبساطة في روايته الصريحة والدقيقة عن الخلافات ضمن الجيش وأيضا عن الانشغال الكثير في النزاع الطويل بين الفرنجة والروم .

ومع ذلك من أجل الرصانة العامة في شرحه للمجرى غير الثابت للحملة الصليبية الرابعة ، لا ينقص عمله بأي حال الحيوية ، وعندما على سبيل المثال تنتقل قصته من المؤتمرات والأمور الروتينية الأخرى إلى ذكريات الجيش في الحملة إن التضاد بين تصويره الحي الدراماتيكي لأقدارها وعرضه الأكثر هدوءا للأحداث الأخرى في عمله ، يعطي الضوء والظل لحولية لا تختلف مطلقا في بساطتها بل تغير نغمتها وايقاعها كما تتطلب المناسبة ، وبالنظر إلى هذه الحولية ككل مع تذكر أن فيلها ردين كرائد بين المؤرخين الفرنسيين لم يكن لديه دليل آخر فيما عدا نزعته المحلية الأصيلة يمكننا فقط أن نعجب من مهارة ذلك الجندي ورجل الدولة الذي ينظم وينشر الوقائع مثلما يفعل القائد الخبير بقواته ليضع هذه القصة ذات الآمال العالية الخائبة بمثل هذه الحيوية أمام أعيننا .

وبعد اخفاق الحملة الصليبية الرابعة في بلوغ هدفها الأول ، انقضى بعض الوقت قبل القيام بمحاولة أخرى لكسر قوة المسلمين ، ثم في ١٢١٨ عبر جين دي بريين الملك الاسمي للقدس والحاكم الفعلي لمملكة عكا الصغيرة البحر إلى مصر ، وبعد حصار طويل استولى على دمياط في تشرين الثاني من السنة التالية ، وبعد ذلك بعامين،وكان قد حقق القليل في ذلك الوقت،أحضر جيشه إلى الخليج حيث غمر سلطان مصر الأراضي المنخفضة في حوض النيل فاضطر إلى الاستسلام واعادة دمياط إلى المسلمين ، ولم يعط أي بابا بركته للحملة الصليبية السادسة ولم تباشر بناء على أي باعث ديني ، وكان قائدها الامبراطور فريدريك امبراطور المانيا الذي كان محكوما عليه بالحرمان الكنسي في ذلك الوقت قد أبحر إلى عكا في أيلول ١٢٢٨ ليطالب بمملكة القدس لنفسه بحق زواجه من ابنة وريثة جين دي بريين . لقد كان جيشه صغيرا ، وقد استقبل استقبالا فاترا من قبل بارونات بلاد ما وراء البحار ، ولكن ما لم يستطع أخذه بقوة السلاح تدبر أمر تأمينه بالدبلوماسية . وفي شباط ١٢٢٩ بعد مفاوضات طويلة نوعا ما مع السلطان وقعت اتفاقية يافا ، التي أعطت فريدريك ملكية كل القدس باستثناء مسجد عمر واستعادة المسيحيين ليافا وبيت لحم والناصرة إلى جانب السيادة على تيرون وصيدا .

وهز هذا التسليم الاعتباطي لمدنهم المسلمين وصدمهم ولم يكن المسيحيون من جانبهم أقل غضبا من الشروط التي مكنت الكفار من الوصول إلى القدس مع تركها غير محصنة ، وبقي العداء بين المسلمين والفرنجة ، وفي ١٢٤٢ سقطت المدينة مرة أخرى في أيدي المسلمين .

وبعد أن بلغت أخبار هذه الكارثة إلى أوربا بوقت قصير ، سقط الملك لويس التاسع ملك فرنسا مريضا بشكل ميئوس منه وعلى فراش مرضه نذر أنه إذا استرد عافيته بمعونة الرب فسيمضي بنفسه في حملة صليبية لاستعادة القدس . وكانت هناك شؤون ضاغطة

يجب تسويتها في الوطن أولا ، وهكذا انقضت أربع سنوات قبل أن يترك باريس في آب ١٢٤٨ في المرحلة الأولى من رحلته إلى الشرق ٠

ولم تصل هذه الحملة الصليبية السابعة مثل معظم الحملات التي تقدمتها إلى القدس ، فعلى الرغم من شجاعته الشخصية وقدرته على إلهام شجاعة مماثلة للاخرين ثبت أن مهمة اخضاع المسلمين في مصر كبيرة جدا على رجل كان قديسا اكثر منه عسكريا حقيقيا ، ومرة أخرى غرقت أمال الصليبيين في النيل ، ووصلت حملة الملك التالية الى الأراضي المقدسة إلى نهاية مفاجئة ، بالمتاعب في مملكته التي حتمت عودته إلى فرنسا ، حتى لو أنه بقي هل كان محتملا أن يتمكن من تحقيق شيء . إن بارونات ما وراء البحار المتعجرفين والمستغلين لم يتقبلوا قط بشكل طبيعي التدخل من الغرب . وبعد أن أفادوا من مساعدة الملك الفرنسي في استعادة بعض مدنهم واعادة تحصينها ، أصبحوا فقط مستعدين جدا ليؤكدوا له بأنهم ليسوا في حاجة لمزيد من مساعدته ، علاوة على أن النبلاء الفرنسيين وقد تعبوا من الحرب التي لم يروا فيها أي نفع مأمول لأنفسهم ، كانوا لزمان طويل يحثون الملك على العودة إلى فرنسا وبعضهم وبينهم أخوة الملك كانوا قد تركوا الشرق من قبل .

وبعد سنوات عديدة جعل استرداد انطاكية ١٢٦٨ الملك لويس يفكر في حملة صليبية جديدة ، وكان أخوه شارل وقد أصبح الآن ملك صقلية ، لديه مطامع في أن يصبح هو نفسه حاكما لامبراطورية متوسطية فحرض الملك الساذج غير النزاع إلى الشك بدرجة كبيرة على أن يبدأ بهجوم على المسلمين من شمال أفريقيا . وكان هذا في الحقيقة أمرا شريرا أن يشجع رجلا في مثل هذه الحالة من الضعف الصحي على القيام بأي حملة .

وفي تموز ١٢٧٠ نزل الملك لويس وهو مريض إلى الشاطىء في قرطاج ولكنه سرعان ما سقط ضحية الطاعون ومات في تونس في ٢٥ آب ، وروع شارل وعاد إلى صقلية ، وكان الأمير أدوارد

أمير انكلترا (الذي أصبح فيما بعد أدوارد الأول) قد وعد بالانضمام إلى الملك لويس في تونس وقد وصل بالفعل إليها بينما كان الفرنسيون يغادرونها ، وبعد ذلك بقليل أبحر إلى عكا ولكنه وجد حالة الأمور في بلاد ما وراء البحار سيئة جدا بدرجة لا تسمح له بأن يقوم بأي شيء هناك سوى المساعدة على تنظيم هدنة مدتها عشر سنوات مع المسلمين ، ومن ذلك الوقت وما بعد استمر القتال بين المسلمين والمسيحيين في الشرق ، ولكنه لم يجذب سوى القليل من الاهتمام في الغرب وحدد سقوط عكا في ١٢٩١ نهاية الحكم المسيحي في بلاد ما وراء البحار .

وفي السنوات التي أعقبت موت الملك لويس ظهر أكثر من تقرير حول حكمه الخير وحياته القدسية ، وكتب اثنان من التواريخ من قبل كاهن اعتراف الملك وليم دي بوليو الذي كتب باللاتينية ورواية بالفرنسية تم تأليفها بعد بضع سنوات نقلا عن الروايات الأخرى من قبل واحد اسمه غوليوم دي نانجيس وقد بقيت نصف منسية على رفوف المكتبات العلمية ، وهناك ثالثة مازالت معروفة على نطاق واسع ومقروءة ، وترجمت من قبل عدة مرات إلى الانكليزية وهي المقدمة هنا في نص جديد بعنوان « حياة القديس لويس » ، وكان مؤلف هذه الحولية مثل فيلهار دين مواطنا من شامبين والابن الثاني لسيمون أمير جوانفيل ، وهو رجل نبيل نو منزلة رفيعة كوكيل أمير الاقليم ، ولد في حصن امارة والده فوق مدينة جوانفيل الصغيرة على المارن ولم يكن الأول في أسرته الذي يذهب في حملة صليبية ،فقد كان جده جيوفردي ضمن الجيش الذي حاصر عكا في ١١٨٩ ومات هناك قبل أن يستولي الصليبيون على المدينة . وانضم اثنان من أعمامه جيوفروي وروبرت إلى الحملة الصليبية الرابعة وصحب روبرت وهو الذي التقى به فيلهاردين وهو في طريقه عائدا من البندقية غوتييردي بريين الى أبوليا ، ويقال إنه مات هناك ، وذهب جيوفري إلى سورية وقتل في ١٢٠٣ في معركة قلعة القرن . ويثنى شعر من تأليف غي دي بروفنس على شجاعته الرائعة . وحافظ الصبي الذي استمع إلى قصص مآثر أقربائه في

حياته التالية على تمجيد ذكراهم . وفي عودته من حملته في بلاد ما وراء البحار أحضر درع عمه جيوفري ليعلقه في كنيسة سانت لوران في جوانفيل ووضع لوحة هناك نقش عليها بكلماته اطراء للأعمال الجيدة للرجال من اسرته في الوطن وفي الحروب الصليبية .

وسيمون والد مؤلفنا الذي خلف أخاه جيوفري أميرا على جوانفيل قد شارك في الحملة الصليبية ضد الألبان وحارب فيما بعد مع جيش جين دي بريين في مصر ، وكان هناك عندما سقطت دمياط ويذكر ابنه قصص أبيه حول ذلك الحصار الصعب ويقارنه بالاستيلاء السهل على دمياط من قبل الملك لويس ، وبين ذكريات أخرى حول طفولته في ليلة معينة في ١٢٣٠ عندما ترك سيمون الحصن وأسرع لاغاثة ترويس ، وكان الصبي في أوائل العقد الثاني عندما توفي أبوه وكان ابن سيمون الأكبر قد توفي من قبل ، وهكذا أصبح جين أميرا على جوانفيل وأدارت أرملة سيمون التي يبدو أنها كانت امرأة ذات شخصية قوية الأملاك خلال فترة حداثة ولدها ، وأعدته للوقت الذي سيصبح فيه كبيرا بدرجة تكفي لمزاولة واجبات أمير شامبين وهو منصب كان يشغله أمراء جوانفيل لأجيال عديدة . وفي هذا التاريخ بالذات لم تكن مثل هذه الواجبات مرهقة ، ولم يعد يدعى لادارة العدل ضمن الاقليم أو للتحكم في الترتيبات الداخلية في قصر أميره ، وكانت وظيفة نائب الأمير الرئيسة هي أن يقف على خدمة أميره في مناسبات الاحتفالات الخاصة ، بالاضافة إلى أن يعرف كيف تدار مثل هذه الشؤون مع انتباه متوجب للأمور ذات الأولوية ، وللطرق الصحيحة للسلوك ، والطراز المناسب للباس .

وكان الفتى وهو بعد أصغر من أن يصبح فارسا يقوم بقطع اللحم للكونت دي شامبين في الوليمة في القاعة الكبرى في سومور في ١٢٤٧ ، وكان على معرفة جيدة سالفة بواجبات منصبه ، وفي السنوات التالية سيظهر تأثير تدريبه المبكر كنائب للأمير في تسجيله لكثير من الأمور الغريبة التي رآها وسمع بها خلال مدة اقامته في الشرق .

وعلى مايبدو أنه كان في سومور أن حصل جوانفيل على النظـرة الأولى الى الرجل الذي كان له أن يحدث مثل هذا الأثر في حياتـه ، ولكنه حتى الآن الى حد مانعتقد لم يكن قد أصبح في تماس شـخصي وثيق مع الملك لويس حتى أصبحا معا في الحملة الصليبية ، وعندمـا قـرر الانضـمام الى الحملة الصـليبية ، في ١٢٤٨ كان هناك شـك صغير في أن رغبته في اتباع المثل الذي وضعه الأمـراء السـالفون لجوانفيل كان العامل المحدد في خياره . وفي هذا الوقت كان مـايزال يعتبر نفسه تابعا للكونت دي شامبين . ورفضه الخروج على العادة الاقطاعية بـأداء قسـم الولاء للحـاكم الذي على رأس أميره دلالة واضحة على علاقته مع الملك لويس قبل أن يلتقيا في قبرص . وكان ارتباطه الوثيق بالملك مقدرا له أن يأتي وأن يوحي بكتابة تاريخه .

وتختلف حياة سانت لويس كثيرا في خصائها وتركيبها ومحتواها عن رواية فيلها ردين المرتبة المتسمة بالحكمة عن الحملة الصـليبية الرابعة ، وبصرف النظر عن القسم الذي يتعامل مع الأحداث الأولى في حكم الملك فإن تفاصيل قليلة مثل الأوامر الموجهة لحكومة مملكتـه وكلماته الأخيرة لابنه ، وحفنة من الحكايات قد استعارها جوانفيل جميعا من الحوليات الأقدم وهي بالأحرى مجمـوعة مـن الذكريات والخبرات الشخصية الماضية أكثر منها تاريخا بـالمعنى الصـحيح للكلمة . وترتيب جوانفيل لعمله علاوة على ذلك في القسم الأول مليء بصور لورع الملك ولادارته العادلة ، ويتبعها تغـطية ثـانية مفصـلة تقريبا ، لقصة حكم الملك لويس ولاجـازته الأخيرة كقـديس وهـي قصة لامفر من أن تؤدي الى تكرار كثير .

وبعض الخلاف بين هاتين الحوليتين يمكن بلا شك أن يعزى الى حقيقة أن الأقدم منهما هي من عمل رجـل في ربيع الحياة والأخيرة من عمل رجـل يزيد كثيرا عن الثمـانين . وبـاعتراف الجميع كان جوانفيل كثيرا مايكون ثرثارا كما هم المسنون ويميل كالعجـائز الى تكرار نفسه ومع ذلك كما ينظر المحارب المحنك الى الوراء عبر نصف قرن وأكثر الى الأيام حيث حارب وعانى الى جـانب ملكه المحبـوب

فإن جدة وحيوية سجله للخبرات الماضية يجعلنا ننسى عمره ، انه مايزال في الواقع ذلك الفارس الفتى العنيف المتلهف الذي خرج منذ زمان طويل في رحلة الى ماوراء البحار ، ومايميز عمله بشكل خاص في الواقع عن عمل فيلهاردين هو في الحقيقة خلاف في المزاج ووجهة النظر بين هذين المؤلفين أكثر منه هو فارق بين سنواتهما .

وخلافا للمؤرخ الأقدم ، الذي كان عمله مصمما لبيان الأهمية السياسية للاحداث ، وقد بذل إهتماما فقط للاعمال التي شغلت واجهة المسرح واهتمام جوانفيل الأكثر في تأثير الأحداث على الناس الذين كانوا يشاركون فيها يملأ خلفية تركها فيلهاردين غامضة ، وهكذا في تصوير معركة ، بدلا من أن يعطى كما فعل فيلهاردين نظرة عامة عن تقدمها ، يأخذنا جوانفيل الى قلب الصراع ليبين في سلسلة من الحوادث الصغيرة التي تؤثر على الأفراد أو جماعات الناس ردود الفعل المختلفة للناس الذين قاتلوا في تلك الحملة الشرقية المريرة ، واذا حدث في احدى المناسبات أن تحدث عن مؤتمر فانه لايقنع بتسجيل القرار النهائي ، بل يوسع ماقد يورده فلهاردين في جملة موجزة الى رواية تفيض بالحيوية للتبادل في الرأي بين الناس ذوي العلاقة ، وفي الحقيقة نجده يلح في سائر مواد حوليته على الجانب الانساني في قصته ولكونه المراقب الفضولي من الجنس البشري في أي شكل أو صورة وجد جوانفيل يجد متسعا في عمله لمثل تلك الأشياء كالعادات الغريبة وملابس العدو وعلوم الدين لدى الانسان القديم الجبلي ، وتدريب حرس السلطان أو عادات الدفن البدائية للكومان ، ولم يقتصر اهتمامه على الكائنات البشرية اذا لفت أي شيء انتباهه عرضيا اهتم به وتحدث عنه وليكن ذلك سمكة مستحاثة أو منابع النيل الاسطورية أو قوس ونشاب عتيق الطراز ، فقد كان هذا الرجل وهو نصف صليبي ، نصف رحالة باحث .

وللمنهج الوقتي الذي يتبعه في كل حوليته مساوئه ولكن هذا يمكن

أن يعوض بالصورة المليئة بالحيوية التي يعطيها لزمانه ولطرق الحياة في الشرق .

ومن الحوليات التي تختلف في طرق كثيرة جدا فان من المعقول ان يتوقع المرء أن تظهر صورة مختلفة نوعا ما لكل مؤلف . وهذه هي الحالة الى الحد الذي يقدم فيه فيلهاردين الشخصية المثالية لفارس في سلاحه الكامل في حين يكشف جوانفيل عن الرجل الطبيعي في داخله . ان الطريقة الصريحة والبسيطة التي يتكلم بها عن حزنه عند رحيله عن قصره وأطفاله وعن الشكوك والمخاوف التي ساورته في مجرى القتال وتراجعه عن الموت بأيدي المسلمين ، يضع في دائرة الضوء انفعالات شائعة ولكن لايعترف بها الناس بأمانة ، الناس ذوي المشاعر من الذين عانوا من محنة الحرب الصعبة ، وفي روايته المتواضعة عن دورة في مختلف العمليات في الشرق واطراء الشجاعة التي أبداها رفاقه برهان على أنه كان بالطبيعة شجاعا وكريما بقدر ماكان حساسا ومخلصا ، واذا أخذنا في الاعتبار أيضا ولاء جوانفيل الذي لم يفتر للملك الذي كان يخدمه ، وقوة الشخصية التي أظهرها في أكثر من مناسبة ، والعناية المفرطة التي تندر في رجل من طبقته نحو الصليبيين الأكثر تواضعا الذين بقوا في الأسر ، واحساسه بالمسؤولية من أجل رخاء الناس في ممتلكاته الخاصة فيه برهان أن هذا المؤرخ العجوز المختلف جدا عن فيلهاردين في طريقته في معالجة مادته ، كان رجلا متماسكا بكمال ومع أنه انساني أكثر حرارة لم يكن فارسا أقل شهامة .

وتحوي حياة القديس لويس عند النظر اليها ككل ، الكثير مما ليس له ارتباط ، أو كان قليل الارتباط بالموضوع الذي قدمه جوانفيل في تكريسه المبدأي ، ومع ذلك ومع كل تلوينه حقق العمل أهدافه في اعطاء الشرف الكامل لذكرى ذلك الملك الصالح ، وفي الحقيقة ان شدة تلهف هذا الصديق والحواري للقديس لويس على اضفاء التقدير الموائم على أميره المتوفى ، والذي يصبه في حوليته صورة بعد صورة عن فضائله الكثيرة ـ كان نصفها ـ أكثر من

كاف ، وهذه الزيادة في الحماس أكثر ظهورا في الأجزاء من العمل التي يتعامل مع حياة الملك في الوطن والتي يظهر فيها ورعه الدائم وعبادته الله في السر والعلن ، واحسانه وسخاء يده وحبه لشعبه ، المجال الواسع الذي يمنحه للعدل في مفهومه لواجبات الحاكم ، وقد سجل لها بتطويل أكثر من اللازم ، وفي القسم الذي يتعامل مع الأحداث في بلاد ماوراء البحار تظهر شخصية الملك بشكل اكثر درامية من الأحداث التي تصور ، بين اشياء أخرى ، شجاعته المقدامة في المعركة ، وتحمله الصابر للمرض وثباته في وجه الهزيمة ، ومحاكمات الأسر القاسية وهو هنا في الحقيقة كما يصوره جوانفيل قائد يضع مثاله الشجاعة في القلوب الواهنة ويلهم حبه لرجاله ويبعث فيهم اخلاصا مشابها ، وهو ايضا ملك لايستند على هيبته بل هو رجل يمكن التحدث معه لابل حتى المزاح كصديق .

هكذا كان الملك الذي أحبه جوانفيل وبجله ولكن ليس بشكل أعمى ، ولكونه دائما الخادم الوفي لسيده احتفظ بحقه في الحكم على أعمال سيده وهكذا في حين وافق بشكل عام على سمات شخصية ملكه المستقلة كما بدت مثلا في رفضه أن يدع ضميره لحكم الأكليروس ، لم يكن جوانفيل متأكد تماما من أنها كانت حكمة من أميره أن يتجاهل النصيحة من الذين الحوا عليه في أن يتبع « العادات الطيبة للأراضي المقدسة » في توزيع الغنائم في دمياط، ومع امتلائه بالاعجاب بورع ملكه كما كان ، مع ذلك اعتبر أنه غير لائق به البقاء متعبدا في كنيسته عندما كانت الطيبة والكياسة تتطلب منه أن يذهب للقاء زوجته عند وصولها الى صيدا بعد وقت قصير من وضعها مولودا ، وبالمناسبة فإنه لم يتردد حتما في التحدث بصراحة مع ملكه كما على سبيل المثال عندما وافق على البقاء فترة أطول في خدمته شريطة ان يتحكم الملك من جانبه في مزاجه في تلك الفترة نفسها،وهكذا أيضا عندما أهدى راعي دير كلوني الملك مهرين جميلين ثم جاءه في اليوم التالي ليعرض أمامه قضيته ويسأل جوانفيل أميره عما اذا كان حكمه قد تأثر بتلك الهدية ، وعندما سمع أنه قد تأثر اغتنم جوانفيل فرصته بأن نصح الملك بأن يمنع كل

من له علاقة بادارة العدل في مملكته من قبول هدايا من أشخاص ممن يمثلون أمامهم للتقاضي لئلا يتأثروا بالطريقة نفسها .

وفي حين تساعدنا هذه الأمثلة على أن نرى في بطل جوانفيل كائنا بشريا أكثر منه قديسا مهيبا انها ليست موجهة ولايجب ان تفسر هكذا ـ للقدح في ذكرى أمير مبجل وصديق ، وتقف قصة جوانفيل حياة القديس لويس كوفاء وتقدير جدير بملك ، ومايجب ان يحمل الفارس نفسه عليه ، وكيف يحكم رجل في السلطة الشعب الموكل اليه ، ولم يكن كل حبه واحترامه لهذا الملك اقل من حزنه على فقد مثل هذا الصديق العزيز الذي يجد تعبيرا ساميا في حلم جوانفيل بالقديس لويس والذي يأتي كخاتمة مناسبة لهذا الكتاب .

ويأخذنا كتابا فيلهاردين وجوانفيل وفق ماقاله السير فرانك مارزيالس الى الوراء مسرورين الى وسط أمور قديمة مذسية قد مضى زمانها ومع ذلك فلن أمضي بعيدا جدا الى حد التمسك مع ذلك المترجم الأقدم بأن الاهتمام بالذسبة لنا اليوم يكمن كليا تقريبا في اشارته الحية للماضي،ولا أنا اتفق معه في الاعتقاد بأن النص « يتبع الاسلوب الفرنسي بشكل اقرب مايمكن باستعمال اسلوب ادارة الكلام ومجموعة المفرادات القديمة أو التي توحي بالقدم » بل هو محسوب بالشكل الأفضل ليعطي القارىء الحديث انطباعا كاملا وحقيقيا عن كتابيهما .

وبالذسبة لفكري انه بصرف النظر عن أهميتهما التاريخية الحقيقية جدا ، لهاتين الحوليتيين القديمتين قيمة دائمة كوثائق بشرية ، نجد فيها كم هو قليل التغيير الذي ألم على مر العصور بروح الانسان وطرازه السلوكي في أزمنة الطوارىء ، وصحيح أن لهما سمات معينة تميزهما عن المؤلفات التي تكتب اليوم ، ولكن كم هو في الواقع مقدار هذه الفروق ؟ إنها قليلة بدرجة كافية في أعمال فيلهاردين ، حيث أن طريقته الصريحة الواضحة في الرواية عن الحملات القديمة والطرز العتيقة للحرب وثيقة القرابة مع الطريقة

المتبعة من قبل قائد جيش يكتب مذكراته عن الحرب العالمية الثانية ، حتى أن حاجزا رقيقا فقط يبدو أنه يفصل بين فرسان ذلك القرن البعيد وبين رجال العلمين ، ولم تعد نظرة الاستغراب من حين لآخر لدى جوانفيل في اطلالته على العالم من حوله ، وقبوله الساذج للأفكار شائعة في عصرنا الأكثر تعقيدا والأكثر علمية في تفكيره ، وهي باقرار الجميع اصداء لماضي بعيد ، وبالذسبة لبقية حوليته مع ذلك ان مثل تلك الأضواء الجانبية الهامة كما تسلطها على المواقف الفكرية في القرن الثالث عشر تقع في مكان بشكل تفصيلات الخلفية ، وفي الواجهة لدينا قصة مثل قصة فيلهاردين تضع امامنا الفكرة النموذجية لخدمة الفروسية التي عليها تأسست مفاهيمنا عن الانسان المتحضر ، وايضا في روايته المثيرة عن جيش سيق الى الهزيمة والأسر ، إنها تصور مخاطر الحرب بألوان حية واضحة لم يستطيع مرور الزمان أن يفقدها بريقها ٠

والكثير بالذسبة لمحتوى هاتين الحوليتين أي صورة هي الأفضل لنقل معناها الى القارىء الحديث ؟

في رأيي إن الرواية التي تحاول تقليد اسلوبها العتيق الذي فيه بين اشياء اخرى مجموعة الألفاظ محدودة جدا حتى ان الكلمات نفسها تعاد بتواتر رتيب والعبارات كثيرا ماتكون غير محكمة البناء وتربط ببعضها بما لايحصى من ــ و ــ بعيدة جدا عن ان تعطي انطباعا عن قيمتها الثابته ، ويمكن فقط ان تؤكد بافراط الفروق العرضية بين عصرهم وعصرنا ، وبالتالي ، وبتشجيع من المثل الذي قدمه المترجم الخبير السيد تويل كوغيل في روايته المعصرنة من قصص كونتربري صنفت على النمط نفسه ترجمتي بلغة اليوم محتفظا فقط ببعض الاصطلاحات العتيقة حيث لايوجد مكافىء لها في الانكليزية الراهنة ، ومنوعا مجموعة الالفاظ باستعمال حر للمترادفات ، وعندما تدعو الحاجة معطيا للعبارة تحولا اكثر حداثة ، وحاولت مع تغيير طفيف في الصياغة الاصلية بقدر

الامكان ، ومع انتباه دقيق لحفظ النبرة الصحيحة والمعنى ، تقديم هاتين الحوليتين القديمتين بالاسلوب الدارج في الحياة اليومية .

وأقول دارجة لأن كلا من هذين العملين قد أملي (١) وبالتالي يحمل سمة لغة التكلم وكان المؤلفان كلاهما رجلان من ذوي النشأة المهذبة ، ولكن كلاهما يختلف في نغمته تبعا للمزاج والحالة لكل متكلم ، وهكذا نجد في عمل فيلهاردين الطراز الوقور الموزون ، وأحيانا الطراز الرسمي للكلام الذي يناسب رجل له شخصيته الصارمة في المنصب الرفيع ، في حين جوانفيل المتحرر من هذه الاهتمامات الأمر الذي لم يكن غالبا هو الحال بالنسبة لمارشال رومانيا ، يعطي تعبيرا عن طبيعته الأكثر أعتدالا في اسلوب سهل اكثر الفة مشابها للحديث الودي بين رجال حول مائدة عشاء ، أو قرب المدفأة والى أي مدى نجحت في المهمة الدقيقة في التوفيق بين الصور والخلافات في هذه الترجمة ، ان هذا يجب ان يترك للقارىء للحكم عليه .

وفي الختام أحب أن أقول كم أنا مدين للدكتور ي . ف . ريو محقق كلاسيكيات بنغوين الفصيحة الحكيمة ، حول المبادىء العامة والمساعدة الطيبة التي قدمها لي في صعوبات خاصة قامت في مسار عملي

م . س . ى . س